الحارث المحاسبى
(توفى عام ٢٤٣هـ)

الصوفى المربى :

هو "أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى"، البصرى المولد، البغدادى الإقامة والوفاة، أحد الزهاد المتكلمين فى العبادة والهدى والمواعظ، وقد لقب بالمحاسبى من كثرة محاسبته نفسه، وامتثاله لقوله – سبحانه وتعالى– فى سورة الإسراء: ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾ ﴾، لم يتعرف أحد على تاريخ مولده مع الأسف، لكن وفاته كانت ببغداد سنة ٢٤٣هـ (أبو غدة، ص ١٦) .

وكان المناخ المحيط بنشأة المحاسبى، وخاصة فى بغداد، يموج بالمنازعات الفكرية والمطارحات الكلامية، حيث كان « المعتزلة » يعيشون أزهى عصورهم .

وقد اتسمت حياته بالكثير من مظاهر الفقر، على الرغم من أنه كان فى أوائل حياته مترفًا، ثم آثر الزهد والتقشف، وأصبح يتسم بذلك، حيث عرف عنه أن الورع والتقوى كانا يملآن قلبه بالخوف من الله سبحانه، وكان تلميذه "الجنيد" يؤكد أن المحاسبى كان يلزم نفسه بقلة الطعام إلى حد الجوع، مما دفع البعض أحيانًا أن يقدم له مأكلا، لكنه كان يأبى (أحمد ضياء الدين، ص ١١) .

وكانت له فى التأليف أحوال غريبة، فقد روى تلميذه "الجنيد" أن "المحاسبى" كان أحيانًا يجيئ إلى منزله، ويطلب منه أن يسير معه إلى الخلاء، حيث الصحراء الواسعة، ويطلب منه أن يسأله عمًّا يعنّ له من أفكار ومشكلات وقضايا، ويكون الموقف صعبًا بالنسبة إلى "الجنيد" فى بدايته، ثم يفيض الله عليه ببعض ظواهر شوق إلى المعرفة فتخرج منه أسئلة كثيرة يجيب "المحاسبى" عنها، فإذا عاد إلى منزله، أخذ يدون الصفحات عما أجاب به تلميذه !!

وهذا يعنى أن بعض ما كان "المحاسبى" يكتبه ويفكر فيه، إنما هو مما يشغل عقول آخرين

من طلاب المعرفة، وهو نهج رائع حقًّا، بحيث لا تبدو أفكار العالم أو المفكر مجرد نبت لخاص عقله هو .

واجتهد "المحاسبى" كثيرًا فى الكتابة عن أحوال النفس، وكيفية تطهيرها، والكشف عن عيوبها، وما ينبغى لنا أن نفعله لتزكيتها، وكان عهده يزخر بالاشتغال بالحديث النبوى الشريف؛ رواية وحفظًا وكتابة وارتحالا فى طلبه وتحصيله، بيد أن هؤلاء المحدثين كانت لهم مواقف حادة تجاه من يُعمل فكره دراسة وبحثًا فى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، مؤثرين الالتزام برواية النصوص كما هى، من حيث المتن والسند، وكان هذا منفذًا هبت منه على "المحاسبى" رياح نقد شديد، حيث إنه لم يكن على هذا النهج، وإنما كان الرجل حريصًا على أن يستثمر هذه الدرة التى وهبها الله للإنسان ألا وهى العقل، من خلال عملياته المختلفة (أبو غدة، ص١٨).

ومما نقله أبو غدة (ص٢٢) عن إسماعيل بن إسحاق السراج، قال: "قال لى أحمد ابن حنبل يومًا : يبلغنى أن الحارث – يعنى المحاسبى – يُكثر الكونَ عندك، فلو أحضرته منزلك، وأجلستنى من حيث لا يرانى فأسمع كلامه ؟ فقلت : السمع والطاعة لك يا أبا عبد الله، وسرنى هذا الابتداء من أبى عبد الله، فقصدت الحارث وسألته أن يحضرنا تلك الليلة، فقلت : وتسأل أصحابك أن يحضروا معك، فقال: يا إسماعيل فيهم كثرة، فلا تزدهم على الكُسب – عصارة الدُّهن – والتمر، وأكثر منهما ما استطعت، ففعلت ما أمرنى به .

وانصرفت إلى أبى عبد الله فأخبرته، فحضر بعد المغرب، وصعد غرفة فى الدار، فاجتهد فى رده إلى أن فرغ، وحضر الحارث وأصحابه فأكلوا، ثم قاموا لصلاة العتمة – العشاء– ولم يصلوا بعدها، وقعدوا بين يدى الحارث، وهم سكوت لا ينطق واحد منهم إلى قريب من نصف الليل، فابتدأ واحد منهم وسأل الحارث عن مسألة، فأخذ فى الكلام، وأصحابه يستمعون كأن على رءوسهم الطير، فمنهم من بكى، ومنهم من يزعق، وهو فى كلامه (أبو غدة، ص ٢٣).

فصعدت الغرفة لأتعرف حال أبى عبد الله –أحمد بن حنبل– فوجدته قد بكى حتى

غُشى عليه، فانصرفت إليهم، ولم تزل تلك حالهم حتى أصبحوا، فقاموا وتفرقوا، فصعدت إلى أبى عبد الله وهو متغير الحال، فقلت: كيف رأيت هؤلاء يا أبا عبد الله ؟ فقال: ما أعلم أنى رأيت مثل هؤلاء القوم، ولا سمعت فى علم الحقائق مثل كلام هذا الرجل، وعلى ما وقفت من أحوالهم فإنى لا أرى لك صحبتهم، ثم قام وخرج ".

وقد استوقفت العبارة الأخيرة البعض، على فرض صحة الرواية – حيث هناك من يشكك فيها – وراحوا فى تفسيرها اتجاهات متعددة، كان الغالب فيها أن الإمام أحمد كره الحديث فى بعض المسائل الخاصة بعلم الكلام، لكن المسلك التعبدى للمحاسبى كان أمرًا مختلفًا استحق معه التقدير. وفضلا عن ذلك فقد أُخذ على "المحاسبى" تضمن بعض كتاباته أحاديث ضعيفة، وبعض الموضوعة (أبو غدة، ص ٢٥).

وعلى أية حال، فأبو غدة يؤكد (ص٢٦) أن المحاسبى كان له نهج حسن طيب، وهو أن تصوفه الذى دوّنه فى كتبه راعى فيه ما جاء فى الكتاب والسنة، وأقوال الصحابة وأعمالهم بحسب علمه وفهمه، ولم يعثر أحد فى كتبه على شطحات أو شىء من التصوف الفلسفى، بل قام تصوفه على الدعوة إلى تصحيح العلم والعمل، ومراقبة الله –تعالى– وتزكية النفس وتطهيرها من الأدران، وتقريبها من رضوان الله عز وجل.

وكان المحاسبى من الرعيل الأول من الصوفية الصادقين، حيث كان التصوف حقًّا تربية علمية للعقول، وعملية للنفوس، وعلاجًا لأمراض القلوب، وغرسًا للفضائل، واقتلاعًا للرذائل، وقمعًا للشهوات، وتدريبًا على الصبر والرضا والطاعات (مقدمة محمد حسنين مخلوف لرسالة المسترشدين، ص٨) .

كذلك فإن التصوف، فى عهوده الأولى، كان مجاهدة للنفوس ومكابدة لنزعاتها، ومحاسبة دقيقة لها على ما اكتسبته من أعمال، وحفظًا للقلوب عن الهواجس والخطرات التى قد يوسوس بها الشيطان، وانقطاعًا عما يعوق السالك فى سيره إلى الله، وزهدًا فى كل ما يلهى عن ذكر الله ويعلق بالقلوب سواه.

وقد تجلت هذه المعانى ذات الدلالة الطيبة، لدى الرعيل الأول من أهل التصوف العلماء

الناسكين العارفين بالله، القائمين على حدوده، المتمسكين بشريعته، أمثال أبى سعيد الحسن البصرى المتوفى سنة (١١٠هـ)، وأبى إسحاق إبراهيم بن أدهم البلخى المتوفى سنة (١١٦هـ)، وأبى سليمان داود بن نُصَير الطائى المتوفى سنة (١٦٥هـ)، وكذلك أمثال أبى نصر بشر بن الحارث الحافى المَرْوَزى، ثم البغدادى المتوفى سنة (٢٢٧هـ)، وأبى القاسم الجنيد البغدادى، المتوفى سنة (٢٩٧هـ)، وأبى سهل بن عبد الله التسترى، المتوفى سنة (٢٨٣هـ)، وأمثالهم (مقدمة مخلوف، ص ١٠).

مكانة العقل :

قد يكون غريبًا بعض الشىء، ونحن أمام مربٍّ نهج نهجًا صوفيًّا، أن نسعى إلى التوقف عند رأيه في العقل، حيث يتبادر إلى الذهن على الفور ما يرتبط به العقل من منطق وأدلة عقلية وبراهين منطقية ودقة الملاحظة للوقائع، والقدرة على الاستنباط، وما يسير على هذا النحو، لكننا نُذَكّر القارئ بأمرين، أولهما: ما قال به البعض من اهتمام للمحاسبى ببعض قضايا علم الكلام، مما دفع البعض من الفقهاء، عبر عصور مختلفة فى الحضارة الإسلامية، إلى النظر إليه بقدرٍ من عدم الرضا، وعلم الكلام، يُعَوّل كثيرًا على العقل. الأمر الثانى: أن المحاسبى، كما قلنا، كان يعيش في العهود الأولى للتصوف حيث لم تعلق به بعد ملوثات أخرى من تأثر بمذاهب وعقائد وفلسفات أخرى، فضلا عما شاب "الطرق" من بعض ممارسات ليست كلها طيبة .

وللمحاسبى كتابان، أحدهما بعنوان (شرف العقل وماهيته)، والآخر بعنوان (العقل وفهم القرآن)، نستدل منهما على موقفه من قضية العقل .

فهو يرى أن هناك ثلاثة معانٍ للعقل، أولها بمعنى الغريزة، والثانى بمعنى الفهم لإصابة المعنى، والأخير: بمعنى البصيرة والمعرفة .

ويفهم من القول بأن العقل هو الغريزة، ما يسميه بعض المحدثين (الفهم المشترك العام)، على اعتبار أن الفطرة البشرية تشير للإنسان بعدد من الأمور التي لا يحتاج للوقوف عليها

إلى اصطناع منهج رياضى أو علمى، ومن هنا يشترك فيه الكثرة الغالبة من الناس، ووفقًا له أقام المولى -عز وجل- الحجة على من خلق (العقل وفهم القرآن، ص٢٠١) .

ومن أمثلة هذا المستوى من العقل ما تشير إليه الجوارح من معلومات تتصل بما تقع عليه، على فرض سلامتها، وقدرة على التمييز بين أمور تؤدى بالضرورة إلى الهلكة، وأخرى تؤدى بالضرورة إلى السلامة، والربط بين بعض الأمور وفهم بعض الدلالات من وقائع وأحداث، حتى إننا نرى بعض عامة الناس، عندما يفسر أمرًا أو يحكم على شىء، نجده يقول بالعامية: "ما هو بالعقل كده ..." ؟!!

ولعل هذا ما قد يكون معنيًّا بالأسماء التي قال - سبحانه وتعالى- في سورة البقرة أنه علمها لآدم: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾، حيث تفيد هذه الآيات الكريمة اختصاص الإنسان وحده بهذه القدرة .

ومن حيث كلٍّ من المعنى الثانى، أى الفهم لإصابة المعنى، والثالث، والذى هو الفهم والبصيرة، فهما متقاربان، فمن حيث المعنى الثانى نجد أن الله -عز وجل- قد أرسل الرسل والكتب، وتوجيهات أساسية لا بد منها، مما أوجب أن يتوافر للإنسان قوة يمكن أن يدرك بها كل هذا، وبناء على ذلك يمكن أن تتم المحاسبة، سلبًا أو إيجابًا، ولذلك نجده سبحانه يقول في سورة الأنفال: ﴿ ... لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ ﴾ .

والبينة المشار إليها في الآية الكريمة هى ما يتصل بفهم العقل ما ألقى إليه من وعد ووعيد، في كل ما يتصل بالدنيا والآخرة (العقل والفهم، ص ٢٠٦).

والفهم على هذا هو الظاهرة العقلية التي تؤدى إلى الوعى بالمعنى من جانب، ثم مهارة

التعبير عما وعاه من معنى في صورة "بيانية"، حيث إن الله خلق الإنسان وعلمه البيان (أحمد ضياء الدين، ص ١٣٩).

أما هؤلاء الذين يعجزون عن التوصل إلى ما يستفاد من التوجيهات الإلهية والنبوية، سواء ما يتصل بالدنيا أو الآخرة، أو يفهمون بصورة غير صحيحة، وخاصة إذا كان التعمد واضحًا، فهؤلاء يقول عنهم – سبحانه وتعالى– في سورة البقرة: ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ ﴾.

وبالنسبة إلى معنى العقل بأنه البصيرة والمعرفة، فهو، فيما يبدو، أرقى مستوى وأعز منزلة، حيث يتعلق بتعظيم قدر الأشياء النافعة والضارة في الدنيا والآخرة (العقل وفهم القرآن، ص ٢١٠).

ووظيفة العقل هنا أن ينفذ إلى ما وراء الأشياء حتى يقف على دلالاتها الربانية، فضلا عن مضامينها الأخلاقية (أحمد ضياء الدين، ص ١٣٩).

والعقل، في هذه المرتبة، قَمِن بأن يوصل الإنسان إلى الله – سبحانه وتعالى–، من حيث القدرة التي لا حدود لها، كلما تأمل بخالص عقله جوانب متعددة من الكون وآيات الله، ومن هنا يجيء قوله – سبحانه وتعالى– ناعيًا على فريق من الناس، على الرغم من منحهم نعمة التعقل إلا أنهم لا يستخدمونها على الطريق الصحيح، فقال في سورة الحج: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ ﴾.

وفى رسالة المسترشدين (ص٩٨) يؤكد المحاسبى على أنه "ما تزين أحد بزينة كالعقل ولا لبس ثوبًا أجمل من العلم؛ لأنه ما عرف الله إلا بالعقل، ولا أطيع إلا بالعلم"، ونفهم من هذا النص أيضًا تفضيلا من المحاسبى للعقل على العلم، وهو الأقرب إلى الصحيح، وإن كان هناك من أدار حوارًا طريفًا بين العقل والعلم، ليبين على لسان كل منهما فضله على الآخر، فقال على لسانهما (رسالة المسترشدين، ص ٩٩):

علمُ العليم وعقلُ العاقل اختلفا من ذا الذى قد أحرز الشرفا
فالعلم قال : أنا أحرزت غايته والعقل قال : أنا الرحمن بى عُرفا
فأفصحَ العلمُ إفصاحًا وقال له بأيّنا الله فى فرقانه اتصفا ؟
فبان للعقل أن العلم سيده فقبّل العقلُ رأس العلم وانصرفا

ولم ينتبه القائل بهذا إلى أن العقل هو فى الحقيقة منبع العلم وأصله، وأن العلم يجرى من العقل مجرى النور من الشمس والرؤية من العين، وقد أكد الحارث المحاسبى على هذا، ومن هنا كتب يقول: "مثل العقل مثلُ البصر، ومثل العلم مثل السراج، فمن لا بصر له، لا ينتفع بالسراج، ومن له بصر بلا سراج لا يرى ما يحتاج إليه" (هامش رسالة المسترشدين، ص٩٩).

التعليم والعلم:

أهداف التعليم: القضية الأولى فى هذا الشأن، أن يحدد المربى أولاً ما يراه من حيث الهدف من التعليم ومقاصده، فهذا هو الذى يحدد مكانة التعليم والدور الذى يمكن أن يقوم به، ومنهم العلماء والمعلمون المكلفون، بتحقيق مثل هذا الهدف أو الأهداف.

وواضح أن المحاسبى، بحكم أمور كثيرة تشهد على ذلك، يركز على الهدف الدينى، بكل ما يمكن أن يتفرع عنه من أهداف أخرى، والتعبير عن الهدف الدينى يتمثل فى القول بأن يحقق المتعلم العبودية لله – سبحانه وتعالى–، ومن هنا ألح المحاسبى على ضرورة التزام الطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، من قبل المتعلم، والإيمان وتوطيد الصلة بالخالق عز وجل، حيث يفرض هذا على المتعلم أن يلتزم بالتقوى والورع، وأن يحافظ على المحاسبة المستمرة للنفس .

ويظهر لنا مغزىهذا عندما يسأل متعلم شيخه المحاسبى عما يأمره ابتداء على طريق التعلم، فكان جوابه: "أن تعلم أنك مربوب، فإذا علمت أنك عبد مربوب، ثم عقلت: لَم

خلقت، فإذا علمت ذلك علمت أنه لا نجاة للمربوب المتعبد إلا بطاعة الله ربه ومولاه، وأن الدليل على طاعة الله ربه ومولاه عز وجل، العلم، ثم العمل بأمره ونهيه، فى مواضعه وعلله وأسبابه، ولن تجد ذلك إلا من كتاب الله وسنة نبيه، صلى الله عليه وسلم، لأن الطاعة هى سبيل النجاة، والعلم هو الدليل على السبيل، فأصل الطاعة: الورع، وأصل الورع: التقوى، وأصل التقوى : محاسبة النفس، وأصل محاسبة النفس : الخوف والرجاء" (الرعاية لحقوق الله، ص ٤٧).

ويتفق مع المحاسبى الجمهرة الكبرى من المربين المسلمين، كما يلمس القارئ لدى من تناولنا فكرهم وآراءهم فى الكتاب الحالى، ونجد لدى واحد ممن لم يسعدنا الحظ فى تناولهم، مثل ابن القيم، يكتب فى (إعلام الموقعين، ٢: ١٥٧-١٥٨) أن الله - سبحانه وتعالى- أوجب على كل أحد عبودية بحسب مرتبته، وهناك العبودية العامة التى سوّى بين عباده فيها :

فعلى العالم من عبودية: نشر السنة والعلم، الذى بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم، ما ليس على الجاهل، وعليه عبودية الصبر على ذلك ما ليس على غيره .

وعلى الحاكم من عبودية، إقامة الحق وتنفيذه وإلزامه من هو عليه به والصبر على ذلك والجهاد عليه، ما ليس على المفتى .

وعلى الغنى من عبودية، أداء الحقوق التى فى ماله، ما ليس على الفقير .

وعلى القادر على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بيده ولسانه، ما ليس على العاجز فيهما.

وفى القلب من الهدف الدينى من التعليم، تقف الفضائل الخلقية، حيث تعتبر أساسًا جوهريًا فى العقيدة، وقد برز هذا الهدف، بالإضافة إلى أخلاقية العقيدة الإسلامية، بفعل ما بدأ المسلمون يعرفون الطريق إليه من بعض المفاسد، فى العصر العباسى، ومن هنا فقد كتب المحاسبى يشير إلى أنه تدبر جملة الأحوال التى أحاطت بالناس فى زمنه، فأدرك صعوبة هذا الزمان الذى تبدلت فيه جوانب الإيمان لدى شرائح من الناس، وبدأ صوت الباطل يعلو على صوت الحق، وشيوع بعض الفتن، واتساع دائرة الواقعين فى أسر الهوى، وانتشار صور الرياء، فكان من واجبه أن يقرع الأجراس تحذيرًا وتنبيهًا، ويشدد على ضرورة التزام خلق الورع،

والابتعاد عن الحرام، والجنوح نحو الزهد والتقشف، والملاحظة الدقيقة لأفعال الجوارح حتى لا يقع فعلها فى دائرة ما يغضب المولى عز وجل .

كذلك كتب المحاسبى فى "رسالة المسترشدين" مخاطبًا المتعلم: "واعلم أن فريضة كتاب الله : العمل بحكمه من الأمر والنهى، والخوف والرجاء لوعده ووعيده، والإيمان بمتشابهه، والاعتبار بقصصه وأمثاله، فإذا أتيت بذلك فقد خرجت من ظلمات الجهل إلى نور العلم، ومن عذاب الشك إلى روح اليقين ﴿ ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥٧ ﴾".

هل من ضرورة للمعلم ؟ ولقد عقب الدكتور أبو غدة على كلام المحاسبى بأنه يفيد أن أمر الاهتداء إلى الله وصلاح النفس وتزكيتها لا يتوقف على التزام (شيخ وبيعة)، وإنما يتوقف على التزام العلم والعمل الذى أمر الله به، وتضمنه الكتاب والسنة وسلوك سلف الأمة (هامش رسالة المسترشدين، ص ٣٨).

وهو يستند فى ذلك إلى أن أى إنسان مسترشد عَمِلَ بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح، فقد سلك طريق الهدى، وتوجه إلى الله ـ تعالى ـ راشدًا مهديًا، إذ القرآن والسنة فى ذاتهما هاديان إلى الله، ومزكيان للروح والنفس أيما تزكية .

والحق أن من الصعب قبول هذا التفسير على الرغم مما نحمله لشيخنا أبو غدة من تقدير عالٍ بحكم ما عليه الرجل من عمق تفكير وصواب تفكير، وجهود دائبة رائعة فى خدمة الموروث الفكرى الإسلامى، إذ لا مناقشة بطبيعة الحال فى أن الاهتداء بكتاب الله وسنة نبيه يوفر للإنسان أقصى ما يطمح إليه من الهدى وبيان الطريق المستقيم، لكن هذا لا يمنع من ضرورة وجود "شيخ" أو معلم يأخذ بيد المتعلم، ليرشده إلى مواضع الاستفادة، والأنبياء والرسل أنفسهم هم مثلنا فى القيام بمسئولية التعليم والإرشاد، وفى القرآن الكريم آيات تبين أن المولى –عز وجل– أرسل الرسل والأنبياء ليعلموا الناس ويزكوهم، وكل منا مطالب بأن يقتدى برسل الله وأنبيائه فيما كانوا يفعلون، ومنه إرشاد الناس وتعليمهم وتربيتهم .

أنواع العلوم: وترتب على هذا المنظور لهدف التربية ومقصد التعليم أن يرى المحاسبى العلم قد انقسم إلى ثلاثة أقسام (أحمد ضياء الدين، ص ١٢٦) :

أولا – علم أحكام الدنيا، وهو ما يتعلق بالسعى لمعرفة الحلال والحرام، ونحن نسعى فى الأرض عاملين نشيطين، ويسمى البعض هذا العلم بعلم الظاهر، وتعلم هذا العلم يعتبر فرض كفاية، إذا قام به البعض، سقط عن الآخرين .

ثانيًا – علم أحكام الآخرة، وهو يعتبر المقابل لعلم أحكام الدنيا، ولذلك سماه كثيرون "علم الباطن"، ويتصل هذا العلم بالعبادات القلبية التى تتضمن الخوف والورع والتقوى والهدى وغيرها، وهذا العلم يعد فرض عين، من الضرورى على كل مسلم أن يتعلمه .

ثالثًا – العلم بالله عز وجل، وهو يتصل بما يخص المولى -سبحانه- وتعالى وحده، مثل الخلق والتدبير، وقد لا يستطيعه إلا القلة من العلماء الذين يهبهم الله من الورع ودقة النظر وعمق الإيمان ما يتيح لهم أن يخوضوا غماره، على الرغم من أنه بحر من العسير إدراك أغواره. ويعد هذا العلم هو أرقى وأعظم العلوم .

من الأساليب التربوية :

هى قضية لا يستطيع مربٍّ أن يغفل عنها، من حيث إنها تشكل "الوسائل" التي عن طريقها يمكن أن ننقل أطرافًا من المعرفة إلى المتعلمين، بأيسر السبل، ووفق أجود الطرق، مما يساعد على ترسيخ المعارف وتوظيفها فيما هو مفيد ونافع سواء للمتعلم نفسه أو للأمة.

ولعل أبرز الوسائل التي تناولها المحاسبى هى :

التربية بالترغيب، حيث تقوم على مسلمة بشرية تذهب إلى أن الإنسان بطبيعته يقبل على مما يشبع احتياجاته، ويسبب لديه مشاعر السرور والبهجة أو اللذة، ومن هنا عرفت التربية الإسلامية ما يسمى التربية بالترغيب، أى استثمار ما يشعر به المتعلم من رغبات وميول في تعلم هذا أو ذاك . والتربية بالترغيب نفسها تعتمد على عدة سبل، نذكر منها : التوبة، ويقصد

بها الشعور بالندم على ما تم اقترافه من أخطاء، وعقد العزم على الرجوع إلى طريق الحق والفضيلة (رسالة المسترشدين، ص ١١٢) .

وكان طبيعياً أن يستشهد المحاسبى ببعض آيات القرآن الكريم التي يحث فيها المولى – سبحانه وتعالى– على التوبة، ترغيبًا للناس، في ترك السبل الضارة والإقبال على السبل الخيرة والمسالك الفاضلة، كما في قوله في سورة التحريم: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ يَوۡمَ لَا يُخۡزِي ٱللَّهُ ٱلنَّبِيَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥۖ نُورُهُمۡ يَسۡعَىٰ بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَبِأَيۡمَـٰنِهِمۡ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتۡمِمۡ لَنَا نُورَنَا وَٱغۡفِرۡ لَنَآۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٨ ﴾.

ومن سبل الترغيب أيضًا : الصدق، والذى عنى به المحاسبى بتطابق ما ينطق اللسان به وما يكون بقلبه وضميره، وهو الأمر العكسى بالنسبة إلى المنافقين الذين يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، ومن هنا كانت نصيحة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وترغيبه المسلمين في قيمة الصدق بأن يؤكد على أنه طريق إلى اكتساب رضا المولى – عز وجل– فقال: "عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدى إلى البر، وإن البر يهدى إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا ". صحيح مسلم .

وعلامة ذلك فى الصادق، وفقًا لما كتبه المحاسبى (رسالة المسترشدين، ص١٠٢):

إذا نظر اعتبر، وإذا صمت تفكر، وإذا تكلم ذكر، وإذا منع صبر، وإذا أُعطى شكر، وإذا ابتُلى استرجع، وإذا جُهل عليه حلُم، وإذا علم تواضع، وإذاعلّمُ وفّقَ، وإذا سُئل بَذَل .

كذلك هناك : الإخلاص، وفق ما قاله – – سبحانه وتعالى-- في سورة البينة: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ۝٥ ﴾.

والعلامة الكبرى للإخلاص، كما يراها المحاسبى، هى إفراد الله – عز وجل– بالعبادة والذكر والتوحيد (رسالة المسترشدين، ص ١٧٢). وهذا يعنى أن أى عمل تربوى لا يقصد به وجه الله فهو لا يعبر عن هذه القيمة، ووجه الترغيب فيها أن الحريص عليها يحظى برضا

الخالق - - سبحانه وتعالى--، وهل هناك جائزة أغلى من ذلك ؟

والمخلص، شعاره الثقة، وحاله المراقبة، ألا ترى قول رسول الله ﷺ: "اعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك"، صحيح مسلم .

وهو أيضًا لا يتعرض لما لا يعنيه، ولا يتكلف فوق ما يكفيه، ولا يأخذ ما ليس بمحتاج إليه، ولا يدع ما وُكّل بحفظه . الناس منه فى راحة، وهو من نفسه فى تعب، قد أمات بالورع حرصه، وحسم بالتقى طمعه، وأفنى بنور العلم شهواته (رسالة المسترشدين، ص١٠٦).

أما التقوى، فهى درة الوسائل، حقًّا، والمتمسك بها يستطيع أن يضمن إلى حد كبير الالتزام بسواء السبيل، وتجنب سوء المآل، فهى سياج يقى الإنسان احتمالات الزلل، على أن تترابط مع غيرها من وسائل، مثل الإخلاص، والصدق .

وفى هذا قال - سبحانه وتعالى- في سورة النحل: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾، وقال في سورة الطلاق: ﴿ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ... ﴿٣﴾ ﴾.

وفى هذا كتب المحاسبى فى رسالة المسترشدين (ص٤٦) يقول: "والزم تقوى الله، كما قال ﷺ "المسلم: من سلم الناس من يده ولسانه، والمؤمن : من أمن الناس بوائقه" (جمع بائقة وهى الشر والمصيبة)، رواه أحمد والترمذى والنسائى . أما أبو بكر الصديق-رضى الله عنه- فقد قال: اتق الله بطاعته، وأطع الله بتقواه، ولتخف يداك من دماء المسلمين، وبطنك من أموالهم، ولسانك من أعراضهم" .

ومنها: مصاحبة أهل الورع، ولهذا يؤكد المحاسبى على ضرورة هذا النوع من المصاحبة، فمن شأنه أن يغرس حب الخير لدى المتعلم، من كثرة وطول رؤيته وخبرته بمثل هذه النماذج الطيبة، ويؤيد هذا ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "إن لله ملائكة سيّارة يطوفون فى الأرض، فإذا صعدوا إلى السماء سألهم الله تعالى وهو أعلم بهم : من أين جئتم ؟ فيقولون: جئنا من عند عباد لك فى الأرض، يسبحونك،

ويُكَبرونك، ويهللونك، ويحمدونك، ويسألونك، ويستغفرونك، فيقولون: رب فيهم فلان عبد خطّاء، إنما مرّ فجلس معهم فيقول: وله غفرت، هم القوم لا يشقى بهم جليسهم" (رسالة المسترشدين، ١٠٧).

أما التربية بالترهيب، فيقصد بها استثمار ما جبلت عليه النفس الإنسانية من خوف ورهبة لتوجيه تلك الطاقة إلى الخوف من الوقوع فى الرذيلة، وإلى الرهبة من مخالطة رفاق السوء، وما سار على هذا الطريق، ومن هنا نجد التحذير الربانى يجىء بالوعد والوعيد، منبهًا الإنسان ألا يقع فى معصية الخالق - سبحانه وتعالى-، ويرتكب ما حذره من الوقوع فيه، ولهذا قال - سبحانه وتعالى- ﴿ وَإِيَّـٰىَ فَٱرۡهَبُونِ ﴾.

والطريق إلى إحسان استثمار أسلوب الترهيب، يبدأ بالإلحاح على الإنسان وتذكيره به، إذ يجهل أجله، فلعله يكون حالا، فبماذا استعد لهذه اللحظة ؟وإذا كان ذكر الموت يشيع فى قلب الإنسان رهبة وخوفًا، فمن المهم التذكير به، من حين إلى آخر، وخاصة عندما نلاحظ أن من أمامنا يبدو وكأنه قد نسى هذه الحقيقة .

بل إنه - سبحانه وتعالى- ذكر فى آيات عدة مظاهر ومشاهد لأقوام سابقين كانوا أهل عزة ومُلك وجاه ومال، ثم خسف الله بهم وبدارهم الأرض، وهو يروى مثل هذه الروايات والقصص، تذكيرًا للإنسان بألا يأمن أن يقع مثل هذا لقومه، إذا كانوا مبتعدين عن طريق الله، مصرين على غيّهم، فمن ذلك قوله - تعالى- فى سورة مريم: ﴿ وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا قَبۡلَهُم مِّن قَرۡنٍ هَلۡ تُحِسُّ مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزًا ﴿٩٨﴾ ﴾.

ومن سبل الترهيب: التحذير من الارتماء فى أحضان الدنيا لطلب التباهى والتفاخر على الغير من الناس، ولذلك عندما سئل المحاسبى عن المحمود والمذموم من الدنيا، قال: "جملة ذلك كله ما أخذت من الدنيا للدنيا فهى الدنيا المذمومة، وما أخذت من الدنيا للآخرة فهى الدنيا المحمودة" (أحمد ضياء الدين، ص ١١٠) .

ولعل هذا القول للمحاسبى يعنى أن طلب الدنيا سعيًا وراء التباهى والتفاخر على جمهرة الناس يمكن أن يلهى الإنسان عن طاعة الله - سبحانه وتعالى-، وبالتالى فقد يقوده هذا إلى

ارتكاب المعاصى، واقتراف الذنوب، ومن هنا يجىء قوله صلى الله عليه وسلم: "من كانت الدنيا همه، فرق الله عليه أمره وجعل فقره بين عينيه، ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له، ومن كانت الآخرة نيته جمع الله له أمره، وجعل غناه فى قلبه وآتاه الدنيا وهى راغمة"، صحيح ابن ماجة.

كذلك فإن من أساليب الترهيب التى نبه عليها الحارث المحاسبى: التحذير الشديد من الكِبر، والحسد، والغش، وفى ذلك قال صلى الله عليه وسلم: "الكبر بطر الحق وغمط الناس"، كما جاء فى صحيح مسلم، ما يشير إلى أن الكِبر يتضمن أمرين، أولهما احتقار الناس والتعالى عليهم، والثانى رد الحق، وهذا وذاك يؤدى بالضرورة إلى الوقوع فى الخطأ المستوجب لغضب الله عز وجل، وفى ذلك نقرأ قوله – سبحانه وتعالى – فى سورة الزمر: ﴿... أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٦٠﴾﴾.

ومن النظرات الثاقبة للمحاسبى فى الآثار السلوكية السيئة للكبر، أنه يعنى أن ينظر إنسان إلى نفسه بأكثر مما تستحق، فيزين له هذا أفعاله وأقواله وكأنها هى الأحسن، ويدفعه هذا أيضًا إلى التقليل مما يفعل غيره ويقول، وقد يكون هو الأفضل مما يصدر عنه هو، ومن هذا وذاك فهو معرض بشدة إلى سلسلة من الأخطاء يمكن أن تلحق به أخطارًا فادحة (أحمد ضياء الدين، ص ١١١).

وإذا كان الحسد يعنى أن يشعر الإنسان بالغم عندما يرى نعمة لدى غيره، فهذا يعنى أن يترك الحاسد المجال للغل أن يأكل قلبه فيمضى أوقاتًا فى هم وحزن، ويكتفى باجترار الآلام النفسية القائمة على غير حق، وهو بهذا يسير عكس ما نصح به رسول الله –صلى الله عليه وسلم– فى قوله: "لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه – أو لجاره – ما يحب لنفسه"، فيما جاء فى صحيح مسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم أيضًا: "لا تباغضوا ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تقاطعوا..."، صحيح مسلم .

ولعل هذا هو المغزى العظيم لقول المولى- عز وجل- فى سورة الفلق: ﴿ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝ ﴾، وبهذا نستعيذ مما يأتى من شرور الحاسدين.

قيمة الزهد :

السمة الأساسية فى التصوف هى الزهد، بل كان الزهد هو نقطة البداية، وهو أمر نسبى إلى حد ما، إذ من الصعب أن يتفق الكثيرون على حد الزهد. وإذا كان الإسلام يحبذ الزهد، لكن على شرط أن يكون ذلك بما لا يتعارض ولا يعوق سعى الإنسان للعمل وإعمار الأرض التى تحتاج كدًّا ونصَبًا وعرقًا، من العسير تحديد معيار للحكم على الزهد، فالحدود الدنيا والعليا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة.

وكان من ميزات ما كان عليه المحاسبى من زهد، هو أنه كان من هذه القلة التى ظلت على تمسكها بروح الإسلام وصحيح الدين، وإن كان بالإمكان أن نقول: إنه قد قسا على نفسه بعض الشىء، وأن ما سار عليه قد لا يستطيعه الكثرة الغالبة من الناس، لكن يظل سلوكه وتظل أقواله فى الزهد مثلا أعلى لا بد للمربى المسلم أن يضعه نصب عينيه، إن لم يكن للتأسى التام به، فأضعف الإيمان أن تكون له منبهًا وحارسًا، حتى لا يغرق فى مغريات الحياة الدنيا .

وكان مما روى عن أحواله فى الزهد، أنه مر وهو صبى بصبيان يلعبون على باب رجل تّمار، فوقف الحارث ينظر إلى لعبهم، وخرج صاحب الدار ومعه تمرات، فقال للحارث: كُلْ هذه التمرات، قال الحارث : ما خبرك فيها ؟ قال : إنى بعت الساعة تمرًا من رجل فسقطت من تمره، فقال : أتعرفه ؟ قال : نعم، فالتفت الحارث إلى الصبيان الذين يلعبون وقال : أهذا الشيخ مسلم ؟ قالوا : نعم، فمرّ وتركه (أبو غدة، ص ٢٧).

فتبعه التمار حتى قبض عليه، فقال : والله ما تنفلت من يدى حتى تقول لى ما فى نفسك منى، فقال : يا شيخ، إن كنت مسلمًا فاطلب صاحب التمرات حتى تتخلص من تِباعَتِه.

كما تطلب الماء إذا كنت عطشان شديد العطش . يا شيخ، تُطعم أولاد المسلمين السحت – أى الحرام – وأنت مسلم ؟ فقال الشيخ :والله لا اتجرت للدنيا أبدًا !!

كذلك حكى الشيخ الجنيد، وهو تلميذ للمحاسبى فقال: "كان الحارث كثير الضُّر – سيئ الحال شديد الفقر – واجتاز بى يومًا وأنا جالس على بابنا، فرأيت على وجهه زيادة الضر من الجوع ! فقلت له : يا عم، لو دخلت إلينا نِلت من شىء من عندنا ؟ قال : أو تفعل ؟ قلت : نعم، وتسرنى بذلك وتبرنى .

فدخلت بين يديه ودخل معى، وعمدت إلى بيت عمى سريعًا – وكان أوسع من بيتنا، لا يخلو من أطعمة فاخرة، لا يكون مثلها فى بيتنا – فجئت بأنواع كثيرة من الطعام، فوضعته بين يديه، فمد يده وأخذ لقمة فرفعها إلى فيه، فرأيته يلوكها ولا يزدردها – أى لا يستطيع بلعها – فوثب وخرج وما كلمنى!

فلما كان من الغد لقيته فقلت : يا عمى، سررتنى، ثم نغصت علىّ ! قال : يا بنى، أما الفاقة، فكانت شديدة، وقد اجتهدت فى أن أنال من الطعام الذى قدمته إلىّ، ولكن بينى وبين الله علامة : إذا لم يكن الطعام مَرْضيًّا – بأن كان فيه شبهة – ارتفع إلى أنفى منه زفرة فلم تقبله نفسى، فقد رميت تلك اللقمة فى دهليزكم وخرجت !" (رسالة المسترشدين، مقدمة أبو غدة، ص ٢٨)

محاسبة الذات :

تكاثرت فى السنوات الأخيرة كتابات وبحوث ودراسات تدور كلها حول أهمية المحاسبة وضرورتها وأصولها وطرقها ونتائجها على التنمية البشرية والتنمية بصفة عامة، ومع الإقرار بهذه المحاسبة الكلية الجماعية، المادية، إلا أن هناك نوعًا آخر من المحاسبة هو مدار عمل الإنسان كله، سواء على المستوى الفردى أو الجماعى، ألا وهو محاسبة الذات، ومن أجل كان "الضمير" وكان ما سمى فى المصطلح القرآنى "النفس اللوامة". وقد سبق لنا أن بينا أن مفكرنا لقب بالمحاسبى من كثرة محاسبته لنفسه وشدته فى هذه المحاسبة .

ومن هنا يأتى قول المحاسبى بأن أصل فساد القلب، ترك المحاسبة للنفس "فإذا أردت صلاح قلبك فقف مع الإرادة وعند الخاطر، فخذ ما كان لله، ودع ما كان لغيره، واستعن على قصر الأمل بدوام ذكر الموت " (رسالة المسترشدين، ١١٠).

وتأكيدًا لهذا علّق أبو غدة على كلام المحاسبى مستذكرًا أن عمر -رضى الله عنه- كان يقول (هامش ص١١١): كل يوم يقال: مات فلان وفلان، ولا بد من يوم يقال فيه: مات عمر. كذلك كان على بن أبى طالب يقول : "ابن آدم إنما أنت أيام، كلما ذهب يوم، ذهب بعضك "، وفى هذا تأكيد على ما سبق أن أشرنا إليه من وسائل الترهيب من التذكير دائمًا بحقيقة الموت، فهذا مما له أثره فى الترهيب، سعيًا لاستقامة السلوك، وهو كذلك يعد حافزًا قويًّا كى يحاسب الإنسان نفسه عما يقول وعما يفعل لحظة بلحظة .

ولكى يقوم الإنسان بمسئولية المحاسبة الذاتية لا بد أن يعرف ما يجب عليه بالنسبة إلى حفظ الجوارح من الحواس السبع، وهى : السمع والبصر واللسان والشم واليدان والرجلان والقلب، الذى "يُؤَمّره" المحاسبى عليها جميعًا، حيث به صلاح الجسد وفساده . ولذلك جعل الله على كل جارحة أمرًا ونهيًا فريضة منه، وجعل بينهما سَعَة وإباحة تَرْكُها فضيلة وإباحة تَرْكها فضيلة للعبد (رسالة المسترشدين، ١١٣).

ثم يتوقف المحاسبى عند كل جارحة، حيث يبدأ بالقلب الذى رأى أن فرضه – بعد الإيمان والتوبة – إخلاص العمل لله، واعتقاد حسن الظن عند الشبهة، والثقة بالله، والخوف من عذابه، والرجاء لفضله .

ومن عجيب ما يذكر هنا أن كل واحد، إذا خفناه هربنا منه، إلا الله – سبحانه وتعالى- فإننا إذا خفناه هربنا إليه، فهو المُخاف منه، والمرجىّ، فالخائف من الله هارب من ربه إلى ربه، يقول -تعالى- فى سورة (الذاريات): ﴿ فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ إِنِّي لَكُم مِّنۡهُ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ۝٥٠ ﴾.

وقد تعددت الرؤى بالنسبة إلى مفهوم القلب، فمن ذلك ما روى من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن من المؤمنين من يلين له قلبى " رواه الإمام أحمد فى مسنده، كذلك قال عليه الصلاة والسلام: "إن الحق يأتى وعليه نور، فعليكم بسرائر القلوب"،

حيث لا نتأكد من ثبوت هذا الحديث، وقال ابن مسعود : للقلوب شهوة وإقبال، وفترة وإدبار، فاغتنموها عند شهوتها وإقبالها، وذروها عند فترتها وإدبارها (رسالة المسترشدين، ص١١٤).

لكن، ما العلاقة بين القلب وبقية الجوارح ؟ رأى عالمنا، عن طريق التشبيه علاقة وثيقة، فالقلب هو البيت، والأبواب هى العينان واللسان والسمع والبصر واليدان والرجلان، فمتى انفتح باب من هذه الأبواب، بغير علم ضاع البيت !

والفرض الذى يقع على مسئولية اللسان، الصدق فى الرضا والغضب، وكف الأذى فى السر والعلانية، وترك التزيد بالخير والشر، وقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "من ضمن لى ما بين لحييه وما بين رجليه ضمنت له الجنة"، أخرجه البخارى فى صحيحه، كذلك قال -صلى الله عليه وسلم- لمعاذ بن جبل : "وهل يكُبّ الناس فى النار على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم ؟!". أخرجه الإمام أحمد، والنسائى، وابن ماجة، والترمذى .

ونُسب إلى رسول الله حديث هو فى الحقيقة، فيما يؤكد أبو غدة (هامش ص١١٧)، من كلام الصحابى الجليل عبد الله بن مسعود وفيه يقول: "أنذركم فضول الكلام، حسب أحدكم ما يبلغ به حاجته، فإن الرجل يُسأل عن فضول كلامه كما يُسأل عن فضول ماله".

أما الفرض الخاص بالبصر، فهو الغض عن المحارم، وترك التطلع فيما حُجب وسُتر، وفى ذلك روى عن رسول الله -صلى الله عليه وسلم- قوله: "النظر سهم من سهام إبليس، فمن تركه من خوف الله آتاه الله إيمانًا يجد حلاوته فى قلبه".

وبالنسبة إلى فرض السمع، فهو تبع للكلام والنظر، فكل ما لايحل للإنسان الكلام فيه والنظر إليه، فلا يحل له استماعه ولا التلذذ به، والبحث عما كُتم عن الفرد، يُعد صورة من صور التجسس (رسالة المسترشدين، ص١٢٠).

وهنا نجد المحاسبى يحرم الاستماع إلى الغناء، مستعينًا برأى واحد من التابعين وهو "القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق" -رضى الله عنه- الذى قال فيه: إذا ميز الله بين الحق والباطل يوم القيامة، أين يقع الغناء؟ قيل: فى حوز الباطل!

ومن المعروف أن قضية الغناء فيها جدل واختلاف فى الرأى، بين محرم ومحلل، ولكل أسانيده، والمهم فى رأينا هو السياق الذى يتم فيه الغناء، والوسائل المتبعة، والأغراض المستهدفة، والكلمات المغناة .

وما هو فرض على الشم، فهو تبع للسمع والبصر، فكل ما حلّ استماعه والنظر إليه، جاز للمتعلم شمه، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز أنه أُتى بمسك، فأمسك عنه أنفه، فقيل له فى ذلك، فقال : "وهل يُنتَفع منه إلا برائحته "؟ ويبدو أن المسك كان من بيت المال حتى تورّع الخليفة عن شمه (ص١٢٢).

أما بالنسبة إلى ما هو فرض على اليدين والرجلين، فعليه أن لا يبسطهما الإنسان إلى محظور، ولا يقبضهما عن حق، ولذلك قيل: ما خطا العبد خطوة إلا كتبت حسنة أو سيئة.

وقد افترض المحاسبى أن القارئ يسأله : ما السبيل إلى العمل بذلك ؟ فكان جوابه: "لزوم منهاج الأئمة المتقين، والنظر فى آداب المسترشدين لمعرفة الخَطْو، والتيقظ بالمحاسبة والعمل بالإنصاف، والتحرز بكف الأذى، وبذل الفضل بترك المنة، وحسن السمت بغير حسد ... والتواضع للخلق بلا وحشة، والأنس بالذكر فى الخلوة، وتفرغ القلب للخدمة، واجتماع الهم بالمراقبة، وطلب النجاة فى طريق الاستقامة" (رسالة المسترشدين، ص ١٢٧).

مراجـع:

١- أحمد ضياء الدين حسين : الفكر التربوى عند الحارث المحاسبى، إربد (الأردن) رسالة ماچستير، كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، جامعة اليرموك، ١٩٩١م.

٢- عبد الفتاح أبو غدة : رسالة المسترشدين للحارث المحاسبى، القاهرة، دار السلام، ١٩٨٣م، ط٥

٣- المحاسبى :الرعاية لحقوق الله، تحقيق: عبد الحليم محمود، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٤م.

٤- المحاسبى: شرف العقل وماهيته، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٨٦م.

٥- المحاسبى : العقل وفهم القرآن، تحقيق: حسين القوتلى، بيروت، دار الفكر، ١٩٧٨م، ط٢.

obeikandl.com